نظر المسلكي في الغرائز

الاعتراضات عليه والرد عليها

للدكتور وطفن زعيم المدرسة المسلكية والاستاذ بجامعة جوز هبكنز

تقوم حول دعوى المسلكيين من ان الناس يبنون لا يولدون اعتراضات وجيهة نذكر منها الآتي: (١)— طفلان ولدا ونشأا في وسط واحد تحوطهما عناية واحدة من والديهما وتتصل بهما جماعة معروفة من الاقارب— لا يلبثان بعد حين ان يظهرا ميولاً مختلفة ،فهل يعني هذا الا وجود اشياء موروثة لا اثر للبناء فيها ؟ (٢)— اخوان يعيشان في بيت واحد، لوالديهما شغف باصول التربية فهما حريصان على دقة معاملة الطفلين معاملة واحدة ،اصيب احد الاخوين بما اضطر اهله الى اخذه الى المستشفى وهناك تسلمتهُ الممرضة علابسها البيضاء ونشقتهُ الكلوروفورم ثم اكمل الطبيب صلاحه فيه—يخرج هذا الطفل من هذا كله بذكريات مؤلمة تجعلهُ يفزع اذا رأى ممرضة ويفرق من اسم الطبيب (٣)—اخوان نشأتا معاً ثم اصيبت احداهما بصدمة جنسية قد تكفي لتقرير مسلكها مع الرجال طيلة حياتها

يُفهم من هذا ان ليس هناك وسط واحد ومؤثرات واحدة كما يتوهم الناس . واعتراض آخر يقدمهُ البيولوجيون ضد دعوى المسلكيين وذلك هو القول بالفروق الجنسية—هم يقولون ان هذا الجنس دنيٌّ وسيظل كذلك ابد الدهر—ولكن المسلكيين لا يؤمنون بالفروق الجنسية ويقولون ان الزنجي مثلاً انحط من الاوربي لان الفرص اللازمة لتطوره ورقيه لم تتح له ليس غير، اما اذا ابتعد عن وسطه المكاني وشدة الجو عليه ثم أُعطي كل الفرص الممكنة فانهُ يتغير ويتبدل

واعتراض آخر ينشعب من هنا وهو قول البيولوجيين بالفرق بين وزن دماغ الاوربي ودماغ الهمجي — ولكن الحقيقة في هذا كله — بصرف النظر عن الثقافة — هي ان وزن الدماغ يتناسب مع وزن الجسم ، ودماغ الهمجي خفيف الوزن لان جسمهُ خفيف هو الآخر ، ووزن دماغ المرأة الاوربية لا يزيد عن دماغ المرأة في البوشمان — والسبب في ذلك هو ان متوسط ثقل جسم المرأة الاوربية كمتوسط ثقل جسم المرأة في البوشمان— وعلى هذا فليست خفة وزن الدماغ في الاوربية بالنسبة لوزن دماغ الاوربي سببها ان المرأة في اوربا أحط عقلية من الرجل هناك . واذا كان المسلكيون لا يؤمنون بالغرائز فاذا يضمون مكانها من الاشياء؟ وكيف يبنون من المنازع البدائية في الطفل بناء منظماً تاماً في تركيبه ؟

يفعلون ذلك بالتدريب ولتدلك على ذلك بحوادث مما يقع تحت نظرك كل يوم :

من بين منازع الطفل البدائية في اول حياته وضع اصبعه في فمه ثم مصُّ ذلك الاصبع .

اضرب على اصبع الطفل بقلم ضربة سريعة في كل مرة يضع فيها الطفل اصبعه في فمه تجد بعد حين أن مجرد رؤية القلم تجعل الطفل يسحب اصبعه من فمه ، وبعد حين آخر تجد ان مجرد رؤية الشخص الضارب تكفي لذلك . وفي بدء هذه العملية لم تكن لا رؤية القلم ولا حامله تكفي لجعل الطفل ان يسحب اصبعه . مثل آخر — التنفس في الطفل ظاهرة فسيولوجية — اضرب على المعصم مثلاً فيتأثر التنفس ثم اعقب كل مرة تضرب فيها المعصم ابراز تفاحة حمراء فلا تلبث بعد تكرار العملية ان تجد ان مجرد ابراز التفاحة يحدث عين التأثير الذي كان يحدثه الضرب على المعصم

وتصور انت جنديًا تعوّد سماع الفاظ الاوامر والقيام بحركات بما يوافق معانيها ، ان هذه الالفاظ تثير في الجندي حركاته المطلوبة بدون وعي منه متى تعوّدها التعوّد الطويل

ويحكى ان احد الجند المسرّحين كان يسير في شارع وهو يحمل طفله بين يديه ثم سمع كلة من كلمات اوامر الجيش تلقى على غيره من الجند فانتصب معتدلاً كأنما قد وُجّهَ اليه الامر ووقع ابنه من بين يديه . فهذا البناء الذي صار عليه الجندي في خصوص الاوامر وحركاتها المعيّنة ، هو عين البناء الذي يقول به رجال المسلكية في مسألة تدريب الاطفال فسرعان ما يتدرّب الطفل على مصّاصة اللبن وصوت الام ووقع خطواتها وصوت الاب وطريقة وضعه في سريره . درّب طفلاً ابن تسعة اشهر على ان يذهب الى سريره كل ليلة وهو يحمل لعبة بين يديه ثم ارسله ليلة ليلتين دون ان تحمله لعبته وانظر كيف يعول .. وامثال هذه الحوادث كثيرة وكلها تريك ان الطفل يتكيف حسب النماذج التي توضع له ، والانسان لا يستطيع ادراك مبلغ ليونة الطفل واستعداده للتكيف ما لم يختبر ذلك بنفسه . والآن هلاّ يرى القارىء الكريم ان مذهب المسلكية خير من القول بالغرائز والوراثات ؟ اذ ان هذا المذهب الحديث من شأنه ان يفتح امام الانسانية آمال الحياة فبدل ان يصطدم العاملون بغرائز ووراثات متحجرة تراهم يعملون في مواد لينة سهلة التكيف ؟ وألا يرى الوالدون في هذا المذهب مخرجاً لهم من هذا النقص الذي قد يجدونه في اولادهم فيحسبونه طبيعيًا لا امل في اصلاحه وما هو طبيعيًا ولا اصلاحه بعسير وانما هو نقص سببه قلة ما يعرفه المسئولون عن تربية الاطفال من العناية . وهلاّ يرى العالم كله مبلغ ما يضعه عليهم هذا المذهب من مسئوليات تدريب جيل جديد صالح لهذه الانسانية الكثيرة النقائص ؟ وهل ما يمنع الناس ان يؤمنوا بأن تلك النقطة من « البروتوبلازم » يمكن ان تتناولها ايد صالحة وتكيفها حسب نماذج حسنة مما يدفع بالانسانية الى التقدم المستمر ؟ اما نحن فلسنا نجد ما يمنع هذا الاعتقاد اللهم الاّ الايمان القديم بالغرائز والوراثات

ترجمة وتلخيص : يوسف حنا